قصّة في طفوليّة العقل لابن العبري

بقلم

الابوين مبارك ثابت الديراني ، ومبارك ابي مارون المزرعاني الراهبين اللبنانيين

كنتُ وانا حديث السن العب مع رفقةٍ لي في الشوارع متمرغاً في الاوحال متكتياً بالاسمال فالتفت بغتة فاذا بزمرةٍ من الاحداث يمضون في طريقٍ الى جانبي وتفرست فيهم فاذا هم كرماء الاروماة فضلاء الجرثومة فتحسبهم شموساً واقماراً . تبعث وجوههم انواراً . استعاروا من الملائكة الجمال . واصبحوا ملوك الكمال . حداثة جلتها النعمة . ولم تشوّه بهاءها وصمة . فاستقبلتهم اجمعين بعاطفة الشوق والاكرام . وابتدرتهم باذكى عبارات التحية والسلام ثم وقفتُ امامهم اريد استعلامهم . وقلت : يا سادة الى اين تذهبون . واي غرض تطلبون . قالوا إنا الى المدرسة ذاهبون . والى تحصيل العلم قاصدون . اما انا فلما لم اكن قد شاهدت امثالهم . فلم افهم على الفور مقالهم : فقلت : يا سادتي اصحوا بافادتي . ما المدرسة المذكورة . وما منافع العلم المشكورة . فاجابوا : استاذنا قد أمر . ألا نكشفَ الخبر . وحضنا التحضيض الشديد . وحثنا بالوعد والوعيد الا نوقف على اجتهادنا احداً . او نمدّ لرفع الستر عن احوالنا يداً فان شئت ان تعلم ذاك يقيناً . ولا تكون كاعمى يطوف الارض حزيناً . فهوذا استاذنا فاهرع اليه . والتمس العلم من شفتيه . واحبس سمعك عليه فهو قمين بان يكشف لك عن الحق النقاب . ويهديك من الضلال الى طريق الصواب . قالوا ذلك وساروا . وباجنحة الاسراع طاروا . ولما وعيتُ جواب . جمعهم وانصرف . وغاب عن ناظري بنو الترف . تضرّمت فيّ نارُ حبهم . وتحرّكت بي نسمةُ الهيام بهم . ورشقت نفسي بسهم الملام . لإيجازي معهم الكلام . واني لم اتّجر اتّجارهم . ولم اقتفِ آثارهم . فانكرت المدينة مقامي . وخرجتُ انشدهم في الموامي . ولبثتُ في طلبهم طويلاً . فلم اجدْ الى لقائهم سبيلاً . ثم نظرتُ في صدر الفلاة . شيخاً عليه مظاهر الهيبة والجلال .

واكملة الرصانة والكمال . تريد محاسنهُ الباهرة . حلة موشاة فاخرة . وقد ضُربت فوقه مظلةُ السحابة رمزًا الى ما له من المهابة . وجههُ يبثُ الانوار . كأنه كوكب النهار وهو على سلطان المساء قابض . وكالليث في ذلك القفر اثوابـه كالثلج بيضاء . وبهاؤه ساطع كالبدر في السماء . فادهشني جلاله . واذهلني جماله . وهممت بالتقدم اليه وانا وَجِلٌ مذعور . وعرتني في الدنو منه خشية اسرائيل من الطور . فسجدت له من بعيد . ورفعت ذاتي نحوه بالتعسر الشديد . ولما كان رؤوفـاً يمقت المتصلف وينفر من المتجرف . لقيني ببهجة وهشاشة . ودرجني اليه بحلم وبشاشة . وجبر قلبي من كسره . وحله من ثقال اسره . واقامني مستقيماً لئلا أميل . وسكن روعي ببذل الجميـل . وشرع يتأوه وهو حزين لجهلي . ومجلّب من نقصي وذلي . ويقول : آه . ما كل رجل تطيق السلوك هنا . ولا كل طالب يدرك عندنا المنى فان الرجل التي ما ارشدها التدريب . ولا ثقفها التهذيب لا تأمن التيه في هذه البيداء . ولا الزلل عن هذه الصفواء . فايُّ ذنب قوي عليك . وحبَّبَ ارضنا اليك . فجئتنا لا تعرف الينا مذهباً . ولا تعرفُ لك مأدبـاً . فلما وثقتُ من حبه وايقنتُ قربي من قلبه . نبذتُ من قلبي الرعب . ولم يعُدِ النطقُ عليَّ بصعب . ورأيت اني تمثّلتُ كالثوب فابيضيتُ . وعـادَ اليَّ الروعُ فتقوّيت . وحلّت الدالة عقدة لساني . فجعل يعزز ما في جناني . وقلتُ : ما اكرم زهادك اللائذين بك . واسعد تلاميذك المنضوين اليك . حمدًا لهم لانهم شوقوني الى نظرك . واعدوني لاستماع خبرك . في منزلي حيّوا اليَّ خيرك العظيم . وهدوني الى مقامك الكريم . اما الآن وقـد حزت شرف الدخول الى جنتك برضاك وشاهدت عيناي في مقرك حلمك وعلاك . فاسألك الا تغلق في وجهي بابك . ولا تلق بين حقـارتي وجلالك حجابك . وابذر فيَّ زرعك . كما تبذره في حقلك . وتصرفْ بي بحكم فطنتك وعقلك . واقبلني لا كعبدٍ بل كأجير . وكن لي مقام مدرّبٍ ومدير تجدني قيد اسانك . وطوع بنانك . واهدني في طريق محبتك . وارشدني في سبيل مدينتك . وبررني كبنيك النبهاء . واحضني كذويك الفضلاء . واغسلني كمختاريك برشاشك الطاهر . واهلني كحبيك لثوبك الفاخر . كم ملأت جوفي من الخرنوب . ولطخت نفسي باقذار العيوب .

وكم مهدتُ السرير بالقماش[1] الحقير . كطنفسة من حرير . خطئت ولكن لا عن روية . وحقرت ولكن لا عن خبث نية . بل بالحاح طبع ضعيف وحكم ميل عنيف . واذ تقدمت للانتفاع بمثل تلك التقريعات . والتثقيف بمثل هاتيك التوبيخات . عطف الشيخ الصالح عليَّ . ومال بوجهه المضيء اليَّ . ورشَّ على وجهي من ندا لطفه المحبوب . وفرَّج ببشره عن قلبي الكروب . وقال لي : ليبرح الخوف من صدرك . وليملأ الرجاء قلبك . فانت ولد أديب . ومن القلوب قريب . لطفك ممزوج بالعسل . وغير مقرون بالخطل . فقد استجيب سؤلك . وتفسر لنزلك . سلني العظمة فاني معطيك . والجرأة فاني موليك . وانفض غبار الخرافة . فما يحتمله ذوو الحصافة . ولا تقرب الملل . افض عليك المثل . واعلم هذا واطبعه على صفحات قلبك . واجعله دائماً نصب عينك . وهو انك ان لم تصعد معي للسجود الطويل . بعزم غير عليل . وانت مصعدٌ ذاتك معك . ومحاذر لهوك ان يتبعك . الى مدينة القدس اورشليم . حيث اسرار هورشليم[2] في بيعة الابكار السماوية . وجنّة الابرار الازلية . فلا يتناول حرفاً من علمي علمُك . ولا يدرك معنًى من معانيَّ فهمُك . ولو جعلت طعامك المدر . وفراشك الحجر . اما انا فاذعنت بسذاجة لما اراد . واتممته بحرص واجتهاد . وقلت : ها انا لديك . وبين يديك . املكني مالك الفاخوري للطين . والام للبنين . ولتكفني نعمتك . ولا تفضحني عظمتك . ولتنقذني رأفتك ولا يقضِ عليَّ عدلك . قلت ذلك وانسلخت عن ابي الجسدي . ولصقت بابي الروحي . وتركت الاشياء . لا التفت الى الوراء . واذ قد نزعتُ العظم من الخروف فررتُ من الدنيا فرار الملهوف . ونحيَّت من سلطان المادة فهمي وقلبي واقمت على اتحادي بحلمي وربي .

---

١) القماش ما على وجه الارض من فنات الاشياء

٢) (هورشليم لفظة سريانية ومعناها الضحية الكاملة)